أدهم باشا العريفي: أول لواء وقائد عام سوداني

جون يودال

تقديم: ورد هذا المقال في مجلة الدراسات السودانية في عددها نوفمبر ٢٠٠٦م عن أول رجل سوداني ترقي لرتبة اللواء ثم القائد العام (سر عسكر Seraskir) في جيش الحكم المصري التركي بقلم جون يودال وهو مؤرخ معروف له كتاب شهير هو The Nile in Darkness يدور حول تاريخ السودان في الفترة بين عامي ١٥٠٤ و١٨٦٢م.

منذ إنشاء مملكة الفونج في سنار عام ١٥٠٤م وإلى حين غزو واحتلال السودان بجيوش الحكم التركي المصري بقيادة محمد علي باشا للسودان في عام ١٨٢٠م كان غالب القادة السياسيين الذين حكموا شمال السودان من العرب من العبدلاب في كردفان والنيل الأبيض والنيل الأزرق (خشم البحر/ سنجة) والرهد وفازوغلي والتاكا (البجة). كان القادة الأبرز هم ملوك الفونج وحلفائهم ومساعديهم من العبدلاب، ومن الفونج برز الملك الأول للفونج عمارة دنقس (١٥٠٤ — ١٥٣٤م) ومن العبدلاب برز شيخ عجيب المانجلك (١٥٧٠ — ١٦١١م) ومحمد أبو لكيلك (١٧٥٥ — ١٧٧٤م) والذي غزا وحكم كردفان أحد أعمال مملكة الفونج.

إن أبناء السودان المستقل اليوم هم حفدة أولئك القوم. بين عامي ١٨٢٠ — ١٨٢١م غزا محمد علي باشا دولة الفونج باسم الإمبراطورية العثمانية وقضى علي تلك الدولة المستقلة حتى جاءت ثورة محمد أحمد المهدي في ١٨٩٢م فعاد للسودان استقلاله. كانت المشائخ العربية مقسمة إداريا إلي كواشف/ كشفكلكسات؟ kashifliks يترأسها ممثلي الإمبراطورية العثمانية من الأتراك والشركس والأكراد والألبان، وترك أمر حفظ الأمن والنظام وتحصيل المكوس والجزية لشيوخ القبائل المحليين. ولم يسمح الحكم المصري التركي إلا لشيوخ معدودين بإدارة إقليمهم بصورة كاملة مثل أحمد بيه عوض الكريم أبو سن وإبنه عوض الكريم باشا أحمد وعبد القادر الزين والذي حكم مناطق واسعة في النيل الأزرق والنيل الأبيض لأكثر من ثلاثين عاما.

كذلك احتكر الضباط الأتراك كل الرتب العسكرية عدا الدنيا منها. كتب المهندس الألماني فيردناند فيرني والذي عمل تحت إمرة أحمد باشا أبو ودان في عام ١٨٤٠م:

«كان كل كبار الضباط وحتى الرواد (يوزباشية) والملازمين الأوائل من الأتراك، وكان من الصعب علي عربي أن يحلم برتبة ملازم أول. كان الأتراك لا يكنون كبير احترام للضباط العرب وينظرون إليهم نظرة دونية ولا يتكلمون لغتهم ويعاملونهم وكأنهم خدم لهم لا يحسنون غير جلب القهوة وملء الغليون لهم».

بيد أن ملاحظة المهندس الألماني تلك قد قيلت في زمن بدأت فيه نفوذ حكم الخديوي المصري في القاهرة في الاضمحلال عقب الاحتلال الروسي لجورجيا وسيراكيسا Cherkessia (إحدى أقاليم القوقاز. المترجم). كلف لورد بالمريستون (عمل رئيسا للحكومة البريطانية بين ١٨٥٥ و١٨٥٨م المترجم) السير جون بورنيق بكتابة تقرير عن حالة مصر فكتب تقريرا جاء فيه أن «...الجنس التركي يختفي بصورة سريعة... فخصائص هؤلاء الناس المعروفة تتغير تغييرا صامتا لكنه ملحوظ. إن العنصر المصري يحل بالتدريج محل العنصر التركي. لقد ازداد استعمال اللغة العربية في المعاملات الرسمية، بل إن حسابات الدولة الرسمية تسجل وتحفظ بالعربية». بيد أن النفوذ التركي في السودان قد أخذ وقتا أطول ليبدأ في الاضمحلال. عقب وفاة أحمد ودان في ١٨٤٣م تم تقسيم السودان – ولفترة بسيطة – إلى أقاليم تحكم من القاهرة رغم أن الحكام العسكريين الأتراك ظلوا يسيطرون على الأوضاع في البلاد، إلي أن أعيدت «الحكمدارية» إلي البلاد في ١٨٤٤م.

قدر القنصل البريطاني في الخرطوم عدد أفراد القوات المسلحة ب ١٨٤٧ (منهم ١٦٠٠ رجل) وشمل ذلك ثلاث فرق مشاة. أعاد الخديوي محمد سعيد بعد عقد من ذلك الزمان تقسيم السودان لأربعة أقاليم تحكم من القاهرة مباشرة، بيد أنه أبقى على الجيش موحدا تحت إمرة سر عسكر شركسي هو عثمان باشا جركاس، وكان عدد أفراد ذلك الجيش حينها قد قل كثيرا. وبعد وفاة عثمان باشا في ١٨٦٠م تم تقسيم وتوزيع ما تبقى من كتائب الجيش بين مختلف الأقاليم. كان ذلك من أسباب إضعاف حكومة السودان والتي كان يحكمها من مصر خديوي متردد يعوزه الحزم. أدى ذلك الضعف إلي فتح شهية إمبراطور الحبشة ثيودور الثاني والذي كان يطمح في إعادة احتلال الأراضي التي احتلها من قبل أسلافه في القرن الرابع الميلادي. فوجئ الإمبراطور في اللحظات الأخيرة بموقف خديوي مصر القادم إسماعيل باشا إبراهيم ومن بعد ذلك تعيين المحنك الشركسي موسي باشا حمدي كحكمدار عام السودان في مايو من عام ١٨٦٢م، فتراجع ثيودور عن فكرته تلك. وكعمل انتقامي ضد من رفضوا رغباته التوسعية، قام الإمبراطور ثيودور باعتقال وسجن القنصل البريطاني وأوبيين آخرين في بلاده مما اعتبرته بريطانيا عملا استفزازيا قامت على أثره بحملة

أسمتها حملة ماجدلا (وماجدلا هذه قرية في وسط إقليم الأمهرا أسمها أمبا مريم. المترجم) في عام ١٨٦٨م.

حمل عام ١٨٦٣م أول ظهور لأدهم بيه العريفي في تاريخ السودان. وبحسب تقدير المؤرخ ريتشارد هيل فلقد كان عمره حينئذ خمسين عاما تقريبا. ينتمي أدهم لفرع العريفية من قبائل بقارة دار حامد في وسط كردفان التي أصلها من دارفور وتشتغل بالرعي في مناطق جبال النوبة. كان أدهم بيه يعرف بين الناس بالتقلاوي. عمل الرجل في الفرقة التاسعة من الجيش المصري وكان قد عمل قبل نحو عقد من الزمان كقائد ثاني وكقائمقام في القوات التركية التي كانت تحارب في حرب القرم. عمل أدهم قبل ذلك محاربا تحت إمرة إبراهيم باشا الوالي في الحملة السورية عام ١٨٣٩م. رقي إلي أميرالاي وعينه الخديوي الجديد إسماعيل باشا إبراهيم بطلب من موسي حمدي في مايو عام ١٨٦٣م كقائد لكتيبة جديدة مقترحة.

كانت أولي مهام أدهم بيه العسكرية في السودان هي إخماد تمرد عسكري في كسلا في يوليو ١٨٦٥م عقب تمرد في أكتوبر ١٨٦٤م قام به جنود الفرقة الرابعة وهم مسلمون من قبيلة الدينكا احتجاجا على نقص في الغذاء وتأخير في المرتبات. فشلت وساطة طائفة الختمية بقيادة سيد الحسن الميرغني في عمل هدنة بين الحكومة ومتمردي كسلا. لذا فلقد طلب المسؤولون في كسلا المدد العاجل من الخرطوم. كان أدهم بيه أحد الذين قادوا الحملة التي توجهت إلي كسلا حيث حط رحاله بها في ٣٠ أغسطس، أي بعد ثمانية أشهر من بدء التمرد. كان المتمردون يولون أدهم بيه ثقة عظيمة وكان ذلك مما مكنه من إقناعهم بالتفاوض ثم الاستسلام.

لم تجد مجهودات أدهم بيه تلك فتيلا إذ وصل لكسلا بعد أسبوع من ذلك التفاوض جنود ألبانيون غير نظاميين قاموا بأمر قائد حامية كسلا بسجن المتمردين مما أدى إلي مواجهة بينهم وبين جنود الحكومة أسفرت عن مجزرة قتل فيها أكثر من نصف عدد متمردي الفرقة الرابعة، وأعتقل البقية وبلغ عددهم ٧٥٩ متمردا تم فيما بعد إعدام ٢٤٠ منهم رميا بالرصاص. احتج أدهم بيه بشدة ضد فشل الحكومة في احترام الاتفاق الذي أبرمه مع المتمردين. لم يجد احتجاجه فتيلا رغم أن الخديوي شخصيا كان قد أشاد بموقف أدهم بيه وإنجازه. تم علي أثر ذلك ترقية أدهم إلى رتبة اللواء (وكان حينها باشا). قام إسماعيل باشا بتعيينه قائدا للكتيبتين السوداء الأولى والثانية والتي تم حلهما وإعادة تكوينهما وإرسالهما إلي السودان. صار عدد الجنود في السودان سبعة آلاف رجل. بعد سنتين من ذلك لاحظ جعفر باشا مظهر الحكمدار

الجديد أن أدهم (وخلافا للأوربيين وكبار القادة الأتراك) لم يتلق أي تكريم، فقام بترشيحه لنيل وسام المجيد Medjidieh من الطبقة الثالثة.

تقدم الحكمدار جعفر باشا مظهر باستقالة غاضبة من منصبه في يوليو من عام ١٨٧١م، وهو نفس العام الذي تم فيه إعادة تقسيم حكومة السودان إلي حكومات إقليمية عديدة. أعقب ذلك ترقية أدهم باشا إلي أعلى رتبة في الجيش هي رتبة سر عسكر (seraskir) أي القائد العام للجيش السوداني. تم مرة أخرى ولأسباب أمنية إعادة توحيد قيادة الجيش السوداني في عام ١٨٦٧م وكما هو متوقع وبسبب توصية قوية من جعفر مظهر باشا تم تعيين أدهم باشا كسر عسكر الجيش السوداني.

بدأ الخديوي إسماعيل باشا في تنفيذ سياسته التوسعية الهادفة لضم أجزاء واسعة من أفريقيا انطلاقا من السودان، بيد أنه وخلال حملته التوسعية تلك أهمل الخديوي إدارة نقطة انطلاق حملته: السودان! تجاهل الخديوي كذلك الأزمة المالية التي بدأت تضيق الخناق علي مصر ومضى قدما في تحقيق طموحاته التوسعية في مناطق جنوب البحر الأحمر وخليج عدن. تم تعيين فيرنير مونزنقر (والذي عمل من قبل قنصلا لبريطانيا وفرنسا) كمحافظ لمصوع وحاكم لشرق السودان، وتم ضم بوقوس من الحبشة في أبريل من عام ١٨٧٢م. وفي تلك الأيام من عام ١٨٧٠م بدأ السير صوميل بيكر زحفه من السودان في رحلته الاستوائية لاحتلال الممالك التي تسمى الآن يوغندا، بينما تحركت حملة أخري بقيادة شيخ محمد الهلالي لضم دار فرتيت وشمالي بحر الغزال تمهيدا لضم دارفور.

كان من المتوقع مع كل هذا النشاط العسكري المحموم المنطلق من السودان أن تقوم الحكومة بالسيطرة على الأوضاع في السودان بصورة مركزية وقوية. بيد أن ذلك لم يحدث، بل إن الحكومة ازدادت ضعفا علي ضعف مع استقالة جعفر باشا مظهر وتقسيم حكومة السودان إلي أقاليم إدارية شبه مستقلة. مما زاد الطين بلة إن أحمد ممتاز باشا حاكم منطقة البحر الأحمر (والذي كان من المقربين لخديوي مصر وعينه كحاكم للخرطوم) تم اعتقاله في يوليو ١٨٧٢م بسبب تهم تتعلق بالفساد المالي والإداري وفرض ضرائب غير قانونية. صدر أمر لآدم باشا سر العسكر بأن يقوم باعتقال أحمد ممتاز باشا وأن يحل محله كحاكم عام. وقد فعل.

حلت أخيرا فرصة ذهبية لسوداني قوي أمين أن يتولى منصبا كبيرا ذا خطر... إن لم يكن الحكمدار فليكن الحاكم العام للمناطق جنوب الخرطوم. كان الرجل في منتصف الخمسينات من العمر وله في الإنجازات العسكرية سجل طويل مشرف في خدمة

الجيش التركي المصري، و وكان يتمتع بثقة لا حدود لها من جنوده السودانيين لشجاعته وعدالته ونظافة يده. بهذه الصفات كان الرجل مؤهلا تمام التأهيل لحكم السودان وقد برهن علي ذلك في خلال الشهرين القادمين، بيد أنه لم يك تركيا ولم يكن مقربا من الدوائر الحاكمة في مصر. لذا فلقد ذهب منصب الحاكم العام للشركسي إسماعيل باشا أيوب والذي عمل لسنوات طويلة في السودان وسبق له أن تولى منصب رئيس مجلس الخرطوم في عهد جعفر مظهر وقيادة الكتيبة الأولي في الخرطوم قبل أن يستدعى للرجوع لمصر.

ساق القدر آدم باشا أدهم وإسماعيل أيوب للعمل معا لإنقاذ حملة محمد الهلالي ناظر الخديوي في دار فرتيت. قام الهلالي في مايو من عام ١٨٧٢م بتكليف من جعفر مظهر بحملة ضد زرائب تاجر الرقيق شيخ الزبير رحمة منصور في بحر الغزال، بيد أن تلك الحملة منيت بالفشل ونجح ملازم الزبير الرئيس رابح فضل الله في قتل الهلالي. بعد نحو ثلاثة أشهر وصل الخبر إلي نائب الحاكم العام السر عسكر آدم باشا العريفي والذي نقل بدوره الخبر الحزين إلي القاهرة على الفور. كان تقدير آدم للموقف هو أن قتل الهلالي والقضاء على الحملة التي كان يقودها باسم الخديوي إنما هي نتيجة لخيانة من ملاك «زريبة الزبير». لذا اقترح على مصر أن توجه حملة إنقاذ من كردفان تصوب نحو بحر الغزال لاعتقال الزبير وإحضاره للخرطوم للتحقيق والمسائلة. وخلافا لنصيحة آدم باشا العريفي رمى الخديوي باللوم على الهلالي لهجومه على زرائب الزبير، بل وقرر تعويض ملاك الزريبة إن قرر المحققون أنهم تضرروا من تلك الحملة.

وصل إسماعيل أيوب إلي الخرطوم ليحل أحمد ممتاز واتخذ نفس الموقف اللائم لجعفر مظهر في خذلانه للهلالي. عقب ذلك مضى الزبير تاجر الرقيق العتيد في حملة باسم خديوي مصر لضم دارفور، بينما تم تعيين إسماعيل أيوب كحكمدار. وفي الحادي والعشرين من أكتوبر عام ١٨٧٢م تم إعادة آدم باشا العريفي ليكون سر عسكر الجيش (القائد العام) وظل الرجل يخدم بجد وإخلاص حاكم البلاد لسنين قادمات. لا يعرف علي وجه الدقة ما هي المهام المحددة التي قام بها آدم باشا في بقية حياته العسكرية.

عقب تنصيبه كحاكم عام للسودان بيوم واحد، أمر إسماعيل باشا أيوب في أكتوبر ١٨٧٢م باحتلال القلابات وهي نقطة الحدود التجارية الهامة مع الحبشة. عهد لآدم باشا العريفي بقيادة تلك الحملة وكان الرجل شديد الإدراك لخطورة الأطماع التوسعية عند جون التقري وورونا الأمهري وغيرهما من الذين خلفوا الإمبراطور

الحبشي ثيودور. أفلحت حملة احتلال القلابات في مايو ١٨٧٣م في مسعاها. رقي إسماعيل أيوب إلي منصب الحكمدار في ديسمبر ١٨٧٣ وعمل آدم باشا كنائب له إبان غياب إسماعيل عن عاصمته. كان الاستثناء لذلكم الترتيب هو تعيين رئيس محكمة الاستئناف محمد بيك حسن كنائب للحكمدار وذلك إبان غياب الحكمدار في حملته الكبيرة لمساندة ميليشيا الزبير باشا الخاصة والتي كانت تخوض حربا ناجحة في دارفور. عند أوبة الحكمدار للخرطوم في فبراير ١٨٧٥م تم تخطى آدم باشا العريفي مرة أخري حيث اختير خالد بيك نديم كنائب للحاكم العام.

ليس من المعلوم إن كان آدم باشا العريفي قد تقاعد وهو في رتبة سر عسكر، إذ إن تغييرات كثيرة قد حدثت في تلك السنين في سلم التعيينات والترقيات في السلكين الإداري والعسكري، منها تحول البلاد من أقاليم تتمتع بحكم «شبه مستقل» إلى «حكمدارية مركزية» وغير ذلك.

يفترض أن يكون آدم باشا قد تقاعد وهو في الستين من عمره، بيد أنه من المعروف أنه في أكتوبر من عام ١٨٩٧م لم يرد اسم آدم باشا العريفي من ضمن من رشحوا لشغل منصب الحكمدار بديلا لغوردون باشا.

سيذكر التاريخ أول سوداني وصل لرتبة لواء ثم سر عسكر في الجيش أثناء الحكم المصري التركي، لا سيما وأنه قد ترك وراءه اسما وتاريخا ممتازا مشرفا.